٥. غريب القرآن الكريم بين اللهجة القرشية واللهجات العربية(*)

١ - اللهجة القرشية:

من المكرر المعاد القول بأن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين، فهذه حقيقة لايختلف فيها أحد، اللهم إلا من أعمى الله أبصارهم وطمس على قلوبهم.

وقد أكد الله سبحانه هذه الحقيقة حيث أعادها أكثر من مرة فى كتابه العظيم حيث يقول - ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾(١).

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾(٢).

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٣).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾(٤).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾(٥).

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾(٦).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾(٧).

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾(٨).

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾(٩).

ويذكر الرواة والعلماء أنه نزل بلهجة قريش ، ولهجة قريش ، هى اللهجة النموذجية الأدبية، وقد نضجت حتى وصلت إلى الذروة فى فصاحتها وبلاغتها.

(*) نشر فى مجلة الوعى الإسلامى مارس ١٩٧١.

(١) النحل :١٠٣.
(٢) الشعراء: ١٩٣،١٩٤،١٩٥.
(٣) يوسف : ٢.
(٤) الرعد: ٣٧.
(٥) طه : ١١٣.
(٦) فصلت: ٣.
(٧) الشورى:٧ .
(٨) الزخرف : ٣.
(٩) الأحقاف :١٢.

وقد شاع بين العلماء هذا القول، وسجلته كتب الرواية والتاريخ حتى أوشك أن يكون حقيقة مؤكدة.

وقد أرجع بعض العلماء المحدثين الأنتصار الكبير للهجة القرشية فى مجال الفصاحة والبلاغة إلى عدة عوامل أجملها فيما يأتي:

١- العامل الجغرافي:

لأن قريشا تسكن منطقة مستقلة تسمى حجازاً لها يحفظها من التأثر البعيد المدى بالمؤثرات الخارجية، ولذلك احتفظت بخصائصها اللغوية.

٢- العامل الديني:

فقد كانت قريش سدنة البيت، والبيت محجة العرب فى الجاهلية.

٣- العامل الاقتصادي:

فمعظم تجارة العرب كانت فى أيدى قريش يجوبون بها طرف الجزيرة شمالا، وجنوباً ومجامع العرب وأسواقها بعد الحجيج كانت تعقد على مقربة من مكة.

٤- العامل السياسي:

وهو مرتب على العوامل السابقة، وقد يسر ذلك كله أسباب النفوذ لقريش فى أنحاء الجزيرة (١).

ومن القدماء الذين أثر عنهم هذا القول «أبونصر الفارابي» فقد قال فى كتابه المسُمّى بـ «الألفاظ والحروف» كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق (٢).

من هذا الذى قدمت تبين لنا فى وضوح السر الذى من أجله نزل القرآن الكريم بهذه اللهجة القرشية، فرسول الله ﷺ الذى نزل القرآن الكريم على قلبه لينذر به قومه «أفصح

(١) من مقال المرحوم الدكتور النجار: مجلة الأزهر مجلد ٢٣ ص ٤٩.
(٢) المزهر ج ١ ص ١٢٨ مطبعة السعادة.

العرب، وهو من قريش، وقريش من ولد إسماعيل، وولد إسماعيل من اليمن الذين هم من ولد يعرب بن قحطان» [1].

وحينما كتب المصحف قال عثمان رضى الله عنه للرهط القرشيين الثلاثة «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم»[2].

قال الزهرى : فاختلفوا فى «التابوت» فقال زيد: هو «التابوه» وقال النفر القرشيون هو «التابوت» فرفع الأمر إلى عثمان فقال: اكتبوه بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلسانهم[3].

وفى رأيي أن نزول القرآن الكريم باللهجة القرشية دون غيرها من اللهجات العربية أمر فيه نظر، فإن القرآن الكريم اشتمل على كثير من لهجات العرب التى انتشرت فى الجزيرة العربية، ولو كان الأمر كما يقول هؤلاء المؤرخون - لما رأينا بعض الصحابة يرجع إلى النبى ﷺ ليفسر له بعض كلمات القرآن التى غمض عليه معناها، فقد سأله السائل فى قوله تعالى: ﴿ ولَمْ يلْبِسُوا إيمانَهُم بِظُلْمٍ ﴾[4].

قائلاً: وأينا لم يظلم نفسه؟ فيفسر له النبى ﷺ هذا الظلم بالشرك مستشهداً بقوله تعالى ﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم﴾[5].

وإيمانى بهذا الرأى يبعد ما يدعيه بعض المحدثين من أن الإسلام فرض على العرب جميعا لغة عامة هى لغة قريش، مع أن الإسلام بريء من هذا الإدعاء، فقد نزل القرآن بسبعة أحرف ليسر للعرب جميعا الانتفاع به، والالتصاق بأحكامه وآدابه.

وقد بينت ذلك فى بحث سابق نشر فى «مجلة الفكر الإسلامي» [6].

ومالى أذهب بعيدا، فقد وضع الأمر فى نصابه رسول الله ﷺ حينما رد على بعض أصحابه الذين سألوه: «يا رسول الله : «إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه، ونحن

---

(١) الزينة ج ١ ص ١٤٦.
(٢) الاتقان ج ١ ص ٥٩.
(٣) الزينة ج ١ص ١٤٦.
(٤) الأنعام : ٨٢.
(٥) لقمان : ١٣.
(٦) مجلة الفكر الإسلامي، العدد التاسع.

العرب حقا فقال: إن ربى علمنى فتعلمت» [1] ألا يدل هذا على أن النبى عليه السلام الذى تربى فى قريش، ونشأ بين أحضانها علمه ربه كلام العرب، لأنه أرسل إليهم خاصة وإلى الناس عامة؟ وكيف يتحدى العرب بهذه المعجزة الخالدة ولغة القرآن لغة قبيلة واحدة؟

إن القول بأن القرآن الكريم إنما نزل بلسان قريش وحدها يتعارض مع النصوص القرآنية ذاتها فالنصوص السابقة التى سجلتها فى مقدمة هذا البحث تؤكد أن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين، فكيف أتحكم فى تفسير اللسان العربى بأنه اللسان القرشي؟ وهل قريش وحدها العرب؟ ذلك أمر لايقبله المنطق.

وكيف نفسر قول أبى بكر حينما سأله سائل عن قوله تعالى :«وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا»[2]. فقال: أى سماء تظلني، وأى أرض تقلني، إن قلت فى كتاب الله ما لا أعلم» [3]. وقول عمر رضى الله عنه حينما قرأ على المنبر «وَفَاكِهَةً وَأَبًّا»[4]. فقال: «هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال - لعمرك إن هذا هو التكلف يا عمر» [5] فلو كان أبو بكر رضى الله عنه يعلم معنى «مقيتا» لما وقف حائراً أمامها، ولاذ بالصمت فى مجالها، ولو كان عمر رضى الله عنه يعرف معنى «أبا» لما تساءل هذا التساؤل.

كل ذلك يفسر أن القرآن الكريم «اختص بدقيق المعاني، وكنوز الأسرار، وعلو مرتبته فى الفصاحة ، ومباينته لكلام فصحاء العرب، كل ذلك فيه دلالة على شرفه، وأنه فائق على غيره من سائر الكلام كله بحيث لا يدانيه كلام» [6].

وأحب أن أبين فى هذا المقام أن العرب يختلف بعضهم عن بعض فى الإلمام بهذه اللغة الواسعة التى انتشرت فى أرجاء الجزيرة العربية، وتعددت إلى لهجات، ولا أبالغ إذا قلت: إن القبيلة الواحدة قد يعز على بعض أفرادها أن يحيطوا بقاموس لهجتها ومن هنا نعرض إلى قضية أخرى، وهى قضية غريب القرآن.

---

(١) المسائل لابن قتيبة : ورقة - ٤ : مخطوط.
(٢) النساء: ٨٥.
(٣) مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٨٣.
(٤) عبس : ٣١.
(٥) مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٨٣.
(٦) الطراز ج ٣ ص ٢١٩.

٢ - غريب القرآن:

يوضح لنا «الرافعى» فى كتابه «إعجاز القرآن» معنى الغريب فيقول :

فى القرآن الكريم ألفاظ اصطلح على تسميتها بالغرائب، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة، فإن القرآن منزه عن هذا جميعه، وإنما اللفظة الغريبة هاهنا هى التى تكون حسنة مستغربةفى التأويل، بحيث لايتساوى فى العلم بها أهلها، وسائر الناس»(١).

وفى مجال الغريب ظهر ابن عباس رضى الله عنهما - مفسرا ومبينا، وكما يحدثنا التاريخ أنه أول صحابى خاض فى معمعة هذا الغريب، وأنه وضع الأسس الأولى لكل من جاء بعده من أصحاب الغريب، وأسئلة نافع بن الأزرق له تدل على قدم راسخة فى معرفة لغات العرب، والعلم بمواقع كلامها، ومدلولات ألفاظها، وإليك أيها القارىء بعض هذه الأمثلة.

١ - سأله نافع عن قول الله تعالى :« عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ »(٢).

قال ابن عباس: حلق الرفاق ، قال نافع، وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى

يكونوا حول منبره عزينا.

٢ - وسأله عن قوله تعالى :«وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ»(٣) قال :الوسيلة الحاجة، أما سمعت قول عنترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة

إن يأخذوك تكحلى وتخضبى

---

(١) إعجاز القرآن ص ٧٤.

(٢) المعارج :٣٧.

(٣) المائدة : ٣٥.

٣ - وسأله عن قولـه تعالى: ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ (١) قال: نضجه وبلاغـه. أما سمعت قول القائل:

إذا ما مشـت وسط النسـاء تأودت

كمـا اهتزّ غـصن ناعم الـنبت يـانع

وسأله عن قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٢) قال: أفلم يعلم .

٤ - أما سمعت قول مالك بن عوف:

لـقـد يـئـس الأقـوام أنـى أنـا ابـنـه

وإن كنت عـن أرض العشيرة نـائياً

٥ - وسأله عن قوله تعالى:« وَلا تَضْحَى »(٣) قال: لاتعرق من شدة حر الشمس.

أما سمعت قول القائل:

رأتْ رجـلا أمـا إذا الـشـمـس عـارضـت

فـيـضحـى وأما بـالعـشى فـيخـصر

ويعلق الإمام السيوطى على هذه المسائل المتعددة فى الغريب، والتى ذكرت طرفا منها فى هذا البحث بقوله:

«هذا آخر مسائل نافع بن الأزرق، وقد حذفت منهـا يسيرا نحو بضعة عشر سؤالا، وهى أسئلة مشهورة أخرج الأئمة أفراداً منها بأسانيد مختلفة إلى ابن عباس.

وأخرج أبو بكر الأنبارى فى كتاب «الوقف والابتداء» منها قطعة.

«وأخرج الطبرانى فى معجمه الكبير منها قطعة» (٤).

---

(١) الأنعام: ٩٩. (٢) الرعد: ٣١.

(٣) طه: ١١٩.

(٤) الإتقان ج ١ ص ١٣٣.

وعلى الرغم من إنكار الدكتور طه حسين فى كتابه «الأدب الجاهلي» قصة استدلال ابن عباس على الكلمات القرآنية الغريبة بالشعر العربي، فإننا لانوافقه على هذا الإنكار، لأن الدكتور يعتمد على إنكاره هذا بأن هذه القصة قد وضعت فى تكلف وتصنع لتثبت أن ألفاظ القرآن الكريم كلها مطابقة للفصيح من لغة العرب، أو هذه القصة مدسوسة عليه فقد كان له مولى وهو «عكرمة» يدس عليه كثيرا من الأخبار (١).

والواقع أنه لاداعى لهذه الاحتمالات أو هذه الافتراضات فعبد الله بن عباس يعلم أن الشعر ديوان العرب، وهو المصدر الوحيد الذى يلجأ إليه فى تفسير هذا الغريب ولعله كان متأسياً فى منهجه هذا بما رواه: «أن رجلاً سأل النبى ﷺ فقال: أى علم القرآن أفضل؟ فقال النبى ﷺ عربيته فالتمسوها فى الشعر» (٢).

هذا فضلا عن ابن عباس رضى الله عنه تميز عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ بميزة التأويل، وهى ميزة لا تتأتى بالممارسة ، أو تكتسب بالتجربة ولكنها إلهام من السماء يتفتح له العقل ، فيعي، ويحفظ ما وعاه، ويتفتح له القلب فيدرك من الأسرار ما لا يدرك غيره، وكان كذلك ابن عباس، لأن النبى عليه السلام دعا له، فقال: «اللهم علمه التأويل»(٣).

ومن حق القارىء بعد هذا الذى قدمت أن يقول: وما دليلك على أن القرآن الكريم اشتمل على لغات أو لهجات غير اللهجة القرشية؟ فأقول له إن المحققين من العلماء بينوا لنا كثيرا من هذه اللهجات،وقد ألف فى ذلك إسماعيل بن عمرو المقريء كتابه «اللغات فى القرآن» وإنى اكتفى بذكر طائفة منها فى سورة واحدة هى سورة البقرة، لتكون دليلا على ما أقول.

من سورة البقرة:

(رَغَداً) اية ٣٥ = الخصب بلغة طيء.

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ١٠٩.
(٢) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٦١.
(٣) مفتاح السعادة ج ٢ص ٤١٥.

(فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةَ) آية ٥٥ = الموت بلغة عمان.

(رِجْزًا) آية ٥٩ = العذاب بلغة طيئ.

(خَاسِئِين) اية ٦٥ = صاغرين بلغة كنانة.

(فَبَاءُو بِغَضَبٍ) آية ٩٠ = استوجبوا بلغة جرهم.

(اشْتَرَوْا) آية ٩٠ = باعوا بلغة هذيل.

(سَفِهَ نَفْسَه) آية ١٣٠ = خسر بلغة طيء.

(فَلا رَفَثَ) آية ١٩٧ = الجماع بلغة مذحج.

(ثُمَّ أَفِيضُوا) آية ١٩٩ = انفروا بلغة خزاعة.

(بَغْيًا بَيْنَهُمْ) آية ٢١٣ = الحسد بلغة تميم.

(وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاق) آية ٢٢٧ = حققوا بلغة هذيل.

(فَلا تَعْضُلُوهُن) آية ٢٣٢ = لاتحبسوهن بلغة أزد شنوءة.

(فَتَرَكَهُ صَلْدًا) آية ٢٦٤ = أجرد بلغة هذيل [١].

على أن هذه الكلمات عدت غريبة بالنسبة لغير القبائل التى لم تحتو لهجاتها مثل هذه الكلمات أما القبائل التى وردت هذه الكلمات وفق لغاتها فليست بالنسبة لهم غريبة.

ومن هنا كان واجب العلماء أن يتقصّوا هذه الكلمات، وينسبوها إلى أصحابها وقد فعلوا تيسيرا لمعانى القرآن الكريم، وكشفا للدلالات التى تدل عليها هذه الكلمات، والحق أنّنا نجد أن العلماء لم يقصروا فى هذا المضمار، شمروا عن سواعد جدهم، وبذلوا كل جهدهم، ليذللوا مصاعب هذا الغريب خدمة لكتاب الله وتوضيحا لمعانيه.

ولعلنا إذا بحثنا مدققين عن أول مصنف يطالعنا فى هذا المجال نجده كتاب «مجاز القرآن لأبى عبيدة معمر بن المثنى، فقد نص السيوطى فى كتابه «الوسائل» «أن أول من صنف فى

(١) اللغات فى القرآن ص ٢٠،ص٢١.

غريب القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى لأنه جاء بعد قتادة بن دعامة السدوسى المتوفى ١١٧ وأبى عمرو بن العلاء المتوفى ١٥٤، وهما لم يخلفا لنا أثرا مكتوبا، وإنما كانت الأخبار تنقل عنهما مشافهة» (١).

وهذا الكتاب وإن كان يحمل اسم المجاز، فهو فى حقيقة أمره كتاب يدور حول الغريب من الكلمات القرآنية، وتفيسر هذا الغريب بالشعر وكلام العرب.

وبعد هذا الكتاب ظهرت كتب أخرى فى الغريب مثل «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (٢) وكتاب «لغات القرآن» (٣) لأبى حيان الأندلسي، وككتاب «اللغات فى القرآن» لإسماعيل بن عمرو (٤) وانظر كتب غريب القرآن فى الفهرست لابن النديم تجدها كثيرة.

ومن الحق أن أقرر فى هذا البحث أن هذه اللهجات العربية التى وردت فى القرآن الكريم لم تطغ على لهجة قريش، فمعظم كلمات القرآن الكريم قرشية، ولكنى أظلم الحقيقة حينما أقول: إن القرآن الكريم فرض لهجة قريش على قبائل العرب وألزمهم القراءة بها، ذلك أمر يخالف منطوق الحديث: «إنما أنزل القرآن على سبعة أحرف» وأظلم الحقيقة مرة أخرى لو قلت: إن جميع الكلمات القرآنية قرشية بدليل ما قدمت من كلمات وردت فى هذا الكتاب العزيز غير قرشية على أنه من ظلم الحقيقة مرة ثالثة أن أدعى أن اللهجة القرشية تختلف اختلافاً كبيراً عن غيرها من لهجات العرب ذلك أمر لانقبله للأمور الآتية:

١ - معرفتنا باللهجة القرشية غير كاملة، فليس لنامعجم يوضح رصيدها من الكلمات، حقا إن هناك دراسات دارت حول خصائص اللهجات، و لكنها محاولات تخطيء وتصيب، وليس لها من المراجع التى تعتمد عليها غير المعاجم، وجمعها لم يكن على منهج علمى سليم، فلم تحاول أن تصنف القبائل، وتنسب كل لفظ إلى مصدره اللهم إلا إشارات معدودة لاتغنى شيئاً فى مجال دراسة اللغات.

---

(١) الوسائل فى مسامرة الأوائل ص ٦١٢.
(٢) مطبوع بتحقيق الأستاذ سيد صقر.
(٣) مخطوط التيمورية ٧٤ لغة.
(٤) مطبوع.

على أن السيوطى فى «المزهر» يؤكد أن «الذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس، وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ، وعليهم اتكل فى الغريب،وفى الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة» (١).

٢ - من قال إن قريشا أغلقت على نفسها باب الهجرة أو الرحلة من مكان إلى آخر وذلك ببعدها عن الاحتكاك بغيرها من اللهجات الأخرى، فتسلم لها فصاحتها، ويصان لها لسانها..؟

إن هذا القول مخالف لمنطق القرآن الكريم الذى ينص على أن لقريش رحلتين، رحلة الشتاء والصيف، وناهيك بهذه الرحلات ، أليس فيهاكلمات تتبادل؟ أليس فيها مسميات جديدة لم تعهدها قريش فى لهجتها؟ ألا يؤثر الكلام بعضه فى بعض؟ إن قوانين تصارع اللهجات تثبت هذه الحقيقة،وهى أنه مادام هناك اختلاط فهناك احتكاك لغة بلغة، ولهجة بلهجة، وأسلوب بأسلوب مما لايجعل القول بصيانة هذه اللهجة فى هذه الحالة قولا صائباً.

هذا فضلا عن الاحتكاك اللغوى والأدبى فى أسواق العرب التى كانت تقام فى الجاهلية ولاتنسى ما يفعله موسم الحج من تأثير لغوى كبير، يقولون: إن قريشا كانت تأخذ من هذه القبائل الموفدة أو التى تختلط بها فى رحلاتهم ماخف وقعه على مسامعهم من الألفاظ الرقيقة والكلمات العذبة الموسيقية، وعلى مدى السنين تكونت لهجتهم، إن صح ذلك فهو دليل على أن لهجة قريش خليط من لهجات متعدّدة تمثل اللهجات العربية فى الجزيرة العربية، ومن ثم نزل القران الكريم بها، لأنها اللهجة التى تتمثل فيها لهجات العرب ولاغرو حينئذ أن تكون اللهجة القرشية التى نزل بها الصورة الحية فى مجال تحدى العرب جميعاً أن يأتوا بمثله.

وهذا القول فى نظرى قريب إلى الصواب، لأن لهجة قريش انتخبت من جميع اللهجات، ولكن حينما نقول : أن لقريش لهجة خاصة فى ألفاظها، وتراكيبها تختلف عن لهجات العرب المنتشرة فى الجزيرة، وأن القرآن الكريم نزل بها وحدها فذلك أمر لايقبله

(١) المزهر ج ١ ص ١٢٨، الاقتراح: ص ٢٤.

العقل، لأن فى القرآن الكريم كما قدمت سابقا كلمات كثيرة ليست قرشية الأصول كما نصت على ذلك كتب الغريب، وكتب المعاجم.

٣ - القبائل العربية قبل الإسلام لم تكن تعيش فى عزلة، ومن ثم كانت لهجاتهم جميعاً متقاربة، يفهم بعضهم بعضا حتى القبائل التى كانت تعيش فى شمال الجزيرة لم تبتعد فى لهجاتها كثيرا عن القبائل التى كانت تعيش فى جنوب الجزيرة، بل لا أتجاوز الحقيقة إذا قلت: إنها لغة واحدة فى صميمها ، ولا يعدو الاختلاف أن يكون إلا اختلافا يسيراً فى صفات الحروف من جهر وهمس، وتفخيم وترقيق وهمز وتسهيل، وهذاأمر طبيعى يقتضيه التّطوّر اللغوي.

ومما يؤيد ذلك وفد الحجاز عند سيف بن ذى يزن ملك اليمن، فقد اتجه هذا الوفد وعلى رأسه سيد قريش عبدالمطلب بن هاشم، إلى ملك اليمن يخطب ببيانه القرشي، وسيد اليمن يصغى إليه، ويستمع إلى شاعر الوفد أمية بن أبى الصلت، ويفهم ما يقول فى غير غرابة أو غموض (١).

ومالى أذهب بعيدا ونحن فى عالمنا العربى نتكلم بلهجات متعدّدة لاشك هى من أم واحدة هى العربية التى تطورت إلى هذه اللهجات، ولم يكن هذا الاختلاف فى غير الأشكال.

ويعجبنى فى هذاالموقف كلمة الدكتور «غوستاف لوبون» فى كتابه «حضارة العرب» حيث يقول: «واللغة العربية من أكثر اللغات انسجاما وهى مختلفة اللهجات لاريب فى سوريا وجزيرة» العرب، ومصر والجزائر وغيرها.

ولم يكن هذا الاختلاف فى غير الأشكال، فترى المراكشى يفهم بسهول لهجة المصريين ، أو لهجة سكان جزيرة العرب مثلا ، مع أن سكان القرى الشمالية الفرنسية لايفهمون كلمة من لهجات سكان القرى الجنوبية فى فرنسا».

---

(١) انظر قصة هذا الوفد والتعليق عليه فى كتاب «مولد اللغة» لأحمد رضا العاملى ص ٥٦.

وقد نقل «لوبون» كلمة الرحالة« بركهارد» الذى يعد حجة فى هذا الموضوع فقال: «نجد اختلافا كبيرا لا ريب فى لهجات اللغة العربية العامية أكثر من أية لغة أخرى على ما يحتمل، ولكنه لايصعب عليك أن تفهمها جميعا إذا ما تعلمت إحداها، وذلك على الرغم من اتساع البلدان التى يتكلم أهلوها بها» (١).

أما كلمة أبى عمرو بن العلاء :«وما لسان حمير بلساننا، ولالغتهم بلغتنا» تلك الكلمة المأثورة عن أبى عمرو، والتى ترددت فى كتب الرواة - فأحسن تفسير لإشكالها تفسير الدكتور الحوفى فى كتابه «الحياة العربية فى شعر الجاهلية» حيث يقول :«إن اللغتين عربيتان، ولكن التطور، والمكان، والزمان، والأحداث، والألسنة الخ قد شققت من اللغة الواحدة لهجتين، بدليل قوله (فى رواية أخرى) ولا عربيتهم بعربيتنا، والعرب يطلقون على اللهجة اللسان» (٢).

٤ - على أن مقياس الفصاحة وقف أمامه العلماء حياري، فابن فارس يشيد بلهجة قريش أو بلغتها حيث يقول:«إن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، ذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واختار منهم محمدا ﷺ فجعل قريشا قطان حرمه، وولاة بيته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش فى دارهم، وكانت قريش مع فصاحتها ، وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم وحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب»(٣). والبصريون يشترطون فى الفصاحة أن تصدر من العرب الخلص الذين لم تؤثر فيهم الحضارة، واعتصموا بالبادية من الاختلاط بغيرهم.

ومن ثم كانوا «يفتخرون على الكوفيين بأنهم يأخذون اللغة عن حرشة الضِّباب، وأكلة اليرابيع، على حين يأخذها الكوفيون من أكلة الشواريز وباعة الكواميخ (٤).

---

(١) حضارة العرب ص ٥٣٢. (٢) ج ١ ص ٤١. (٣) المزهر ج ١ ص ٢١٠.

(٤) حرشة الضباب = الصيادون - اليرابيع = جمع يربوع وهى دويبة، الشواريز الألبان الثخينة، الكواميخ = المخللات يشهى بها الطعام.

مع أن لغتنا العربية التى تتمثل فى المعاجم جمعت فى معظمها بروايات البصريين، وحسبنا أن نذكر فى هذا المجال أن أول عمل معجمى قام به الخليل بن أحمد عميد مدرسة البصرة هو معجم العين.

ومن الحق أن نذكر بجانب ذلك أننا لو طبقنا منهج البصريين فى أخذ اللغة لتجنبنا لغة قريش، لأنها خليط من اللهجات كما قلت سابقاً، ولأن أصحابها كانوا يقومون برحلات متعدّدة صيفا وشتاء إلى أطراف الجزيرة العربية فى اليمن، وفى الشام، ولكن الحق يفرض علينا سلطانه فى هذه القضية، وهو أن لغة القرآن الكريم - كما يقول الفراء - أفصح أساليب العربية على الإطلاق (١).

من أجل ذلك أحب أن أبين هنا أن لغة القرآن الكريم لم تكن لغة لهجة واحدة ولكن من كمالها أن تكون مشتملة على كثير من لغات العرب الأخرى ليكون التحدى أتم والمعجزة أبلغ.

وقد لمس هذا المعنى الإمام ابن الجزرى فأصاب المحز حينما قال: «لو جاء القرآن الكريم كله بالأفصح لكان على غير النمط المعتاد فى كلام العرب من الجمع بين الأفصح والفصيح، فلا تتم الحجة من الإعجاز إذ يقال مثلاً: إنه جاء بما لاقدرة للعرب على جنسه، كما لايصح أن يقول البصير للأعمى : قدغلبتك بنظري، لأن الأعمى يقول له: إنما تتم لك الغلبة إذا كنت قادرا على النظر ، وكان نظرك أقوى من نظري، أما إذا فقد أصل النظر فكيف تصح المعارضة؟»(٢).

ولعلى بعد هذا العرض أكون قدوفيت الموضع حقه فى قضية غريب القرآن الكريم وآمل أن أكمل هذا البحث بقضية أخرى تعالج ما ورد فى القرآن الكريم من كلمات أعجمية فإلى اللقاء فى مقال آخر إن شاء الله.

* * *

(١) العربيّة بوهان فك ص ٥.

(٢) نقل هذا النص من مقال للمرحوم الشيخ عبدالجواد رمضان نشر بمجلة الأزهر المجلد ٢٢ ص ٦٠٠.

مصادر البحث ومراجعه

١ـ الإتقان فى علوم القرآن: لجلال الدين السيوطى ـ طبعة ثالثة ـ مطبعة الحلبى.

٢ـ إعجار القرآن: مصطفى صادق الرافعى ـ مطبعة الاستقامة ـ طبعة سادسة.

٣ـ العربية ـ يوهان فك ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار ـ مطبعة دار الكتاب العربى.

٤ـ الاقتراح : لجلال الدين السيوطى ـ مطبعة دائرة المعارف النظامية ـ طبعة أولى ـ حيدر آباد.

٥ ـ حضارة العرب : للدكتور غوستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر طبع دار إحياء الكتب العربية.

٦ـ الزّينة فى الكلمات الإسلامية والعربية للرازى ـ تحقيق حسين فيض الله الهمدانى طبع دار الكتاب العربى ـ طبعة ثانية ١٩٥٧م.

٧ـ الطراز: ليحيى بن حمزة العلوى ـ مطبعة المقتطف بمصر ١٩٢٤هـ.

٨ ـ فى الأدب الجاهلى ـ للدكتور طه حسين ـ مطبعة دار المعارف ـ مصر .

٩ـ لغات القرآن: لأبى حيان الأندلسى ـ مخطوط ـ التيمورية رقم ٧٤ ـ لغة.

١٠ـ مجلة الأزهر.

١١ـ المزهر: جلال الدين السيوفى ـ مطبعة السعادة.

١٢ـ مجلة الفكر الإسلامى.

١٣ المسائل لابن قتيبة ـ مخطوط ـ مصوّر رقم ٢٠٩٦٧ ـ مكتبة جامعة القاهرة.

١٤ـ مفتاح السعادة ـ لطاش كبرى زاده ـ دائرة المعارف التطامية ـ الهند.

١٥ـ مقدمتان فى علوم القرآن ـ تحقيق أرثر جفرى ـ مطبعة السنة المحمدية.

١٦ـ مولد اللغة: لأحمد رضا العاملى ـ نشر دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

١٧ـ الوسائل فى مسامرة الأوائل: لجلال الدين السيوطى.

***